رسالة المعلّم في الإسلام*

الدكتورة أمينة أحمد حسن

عميدة كلية التربية بطنطا

الإحساس بالمشكلة

سارت عجلة الزمن بسرعة منذ عصر ظهور الإسلام حتى العصر الحديث، وأخذ نظام التربية يتغير بسرعة تماثل سرعة الزمن، وتطورت مع ذلك أهداف التربية ووسائلها وطرقها كما تطورت مناهجها ووسائطها، وأخذت أماكن التعليم تتحول بالتدريج من التعليم في الأسرة إلى المسجد إلى الكتاتيب إلى المدرسة الحديثة. ونما في المجتمعات عبر العصور نظريات تربية وأفكار ومبادئ تعليمية تركز اهتمامها حول المجتمع تارة وحول الفرد تارة أخرى. وتبعاً للظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية للمجتمع الإسلامي تأثر التعليم في كل عصر من حيث الكم والكيف تبعاً لاختلاف نظرة المجتمع لأهمية التعليم. فكان الأطفال يحصلون على تعليم عام بالمجان تارة ويحصلون على التعليم بالمصروفات تارة أخرى أو يقدم لهم الهبات والجراية والرواتب كحوافز لهم لزيادة الإقبال على التعليم في حالات متعددة. وكان النجاح المرغوب فيه في كل عصر معقود اللواء بنوعية المعلم المؤمن برسالته وبأمته وبالمبادئ السامية المستمدة من الأصول الدينية.

ولما كان عالمنا اليوم في حالة تغير سريع وتطور خطير وأصبحت الحضارة المادية التي نمت بنمو العلم والتكنولوجيا تشكل ضغوطاً ملموسة على الناحية الروحية، كان لزاماً على المجتمع الإسلامي أن يأخذ بأسباب التقدم والرقي على أن يفطن في الوقت نفسه إلى الأسس الدينية التي ينبغي له أن يرتكز عليها في بلوغ أهدافه. وبتحقيق ذلك يلقي المجتمع على المعلم أعباء ثقيلة تقتضيها الظروف الحالية. فمهمة المعلم اليوم لا تقتصر على مهنة التدريس ونقل المعلومات فقط بل يتحتم عليه أن يكون موجهاً ومرشداً وقائداً ومصلحاً وداعياً إلى الله حتى يتسنى له تنشئة الأطفال والشباب على السلوك الديني السليم، ولكي ينجح المعلم في هذه المهمة وجب عليه أن يكون هو شخصياً قدوة حسنة في سلوكه ومعاملته حتى يمكنه أن يبث في عقل تلاميذه روح الإسلام ويحوّل مبادئه إلى قوة سلوكية تظهر في تصرفاتهم، فتتحول العقيدة إلى إيمان بالأفكار والمفاهيم والمعارف التي تنير لهم الطريق وتهديهم إلى الصراط المستقيم نحو بناء مجتمع إسلامي مستنير، ترتبط فيه مصلحة الفرد مع مصلحة الجماعة كنقطة تحول من الأنانية

---

* المقال مقدم إلى مؤتمر المناهج التربوية والتعليمية في ظلّ الفلسفة الإسلامية والفلسفة الحديثة.

والجهالة والتخلف والضلالة إلى التعقل والتدبر والتفكر والوعي الاجتماعي والتقدم في كل مظاهر الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية.

وإذا كان من اليسير بناء الحضارة المادية، فإنه من العسير بناء الرجال ذوي العقل والروح والفكر المؤسس على القيم والخلق والمبادئ الإسلامية. وهذه هي المهمة الصعبة التي يضطلع بها المعلم في كل مجتمع. فطالبو العلم مختلفون فيما بينهم من حيث مستوى ذكائهم ودرجة تذكرهم وميولهم وحاجاتهم وقدراتهم واستعداداتهم وطموحاتهم؛ ومن ثم يتعين على المعلم عموماً أن يضع نصب عينيه في قيامه بعمله كل هذه الاختلافات بدرجاتها ومستواها ونوعها حتى يعلّم كل الطلاب على قدر عقولهم ليضعهم في قالب واحد هو الشخصية الإسلامية، ويتطلب تحقيق ذلك وجود نوعية خاصة من المعلم المسلم لبناء شخصية الفرد المسلم في مجتمع إسلامي في عصر العلم والتكنولوجيا.

مشكلة البحث

١ـ ما هي الظروف والمتغيرات التي أدت إلى انحراف في سلوكيات المعلم المسلم تجاه أخلاقيات المهنة؟

٢ـ ما هي مظاهر هذا الانحراف؟

٣ـ ما هي مكانة مهنة التعليم بالنسبة للمهن الأخرى المرموقة في المجتمع؟

٤ـ ما هي المحاولات التي بذلت لتمكين المعلم من أداء رسالته ورفع مكانته على المستوى المحلي والقومي والعالمي؟

فروض البحث

(١) إن المعلم هو المسؤول عن تنشئة الصغار والكبار على حب العلم والتمسك بالدين، وتأصيل القيم والمثل العليا في نفوس الناشئة والشباب.

(٢) إن المجتمع الإسلامي يتوافر لديه نوعيّة خاصة من المعلمين حصلوا على إعداد متميز يعتمد في مناهجه وطرقه وأساليبه على أصول التربية الإسلامية التي مصدرها القرآن والسنّة.

(٣) إن معظم من يلتحقون بكليات ومعاهد إعداد المعلمين يتوافر لديهم الصلاحية لمهنة التدريس.

(٤) إن المعلمين في المجتمع الإسلامي على دراية بأصول التربية الإسلامية وفهم صحيح لأساليبها الفنّية، وعلى معرفة تامة بأخلاقيات المهنة وميثاق شرف المعلم.

الهدف من البحث

يهدف هذا البحث إلى إبراز مسؤولية المعلم المسلم ودوره في تقديم التربية الإسلامية والأخذ بها كأساس لتطوير الشخصية الإنسانية ونموها وتنمية الضمير الاجتماعي الواعي، وتعويد الأفراد على ممارسة السلوك الإسلامي السليم.

أهمية البحث

ترجع أهمية هذا البحث إلى أنه يلقي الضوء على أهم أداة رئيسية يتحقق بها إعادة بناء

المجتمع الإسلامي على مفاهيم ومبادئ وقيم إسلامية تدفع بالمجتمع إلى التقدم والرقي، وتخلصه من التخلف الذي ران على عقل وفكر الشعوب الإسلامية في القرون الأخيرة، وتساعده على استعادة الحضارة الإسلامية التي نشرتها الأمة الإسلامية في العصور الوسطى بل والإضافة إليها وتجديدها، هذه الأداة هي المعلم المسلم.

منهج البحث

سوف تتبع الباحثة المنهج الوصفي التفسيري التحليلي لدراسة أحوال المعلم المسلم في جمهورية مصر العربية في الوقت الحاضر مقارنة بأحوال المعلمين المسلمين في العصور الإسلامية الأولى مع تحليل العوامل الثقافية والظروف الاجتماعية والسياسية التي أثرت على أخلاقيات المعلمين نحو مهنة التعليم والتي حالت بينهم وبين فهمهم الصحيح لرسالتهم السامية.

حدود البحث ومصطلحاته

يقصد بالمجتمع الإسلامي جمهورية مصر العربية وهو المجال الذي يدور حوله البحث، وسوف تتناول الدراسة جميع فئات المعلمين على اختلاف مستوياتهم لدراسة أحوالهم ومدى فهمهم لرسالتهم منذ ظهور الإسلام حتى الوقت الحاضر دون التقيد بالتسلسل التاريخي لظهور مهنة التعليم خلال هذه الفترة الزمنية الطويلة.

خطوات الدراسة

- التعرف على مفهوم مهنة التعليم كمهنة ورسالة سامية من خلال رسالات الأنبياء.
- دراسة تطور مهنة التعليم في العصور الإسلامية.
- التعرف على أحوال المعلمين في العصور الإسلامية الأولى.
- دراسة العوامل الثقافية والظروف المختلفة التي أدت إلى تدهور مهنة التعليم وتدني نظرة المجتمع للمعلمين.
- دراسة أحوال المعلمين في العصر الحديث، والجهود التي بذلت من أجل رفع مستوى المعلمين والارتفاع بمكانتهم أمام المجتمع.
- التعرف على أخلاقيات المهنة وواجبات المعلمين من المنظور الإسلامي والنظريات التربوية الحديثة.
- نتائج الدراسة ـ توصيات واقتراحات.

مقدمة

إن تحديد رسالة المعلم كما تحاول أن تكشف عنها هذه الدراسة ليست بالشيء الجديد، ولا ينظر إليها من خلال مفهوم حديث ينبثق من النظريات التربوية الوضعية التي وضعت لمهنة التعليم أسساً ومبادئ علمية بنيت على النتائج التي توصلت إليها فروع العلوم الأخرى في العصر الحديث كعلم الاجتماع والفلسفة وعلم النفس وعلم الاقتصاد وعلم الإدارة وغيرها مما أدخل مهنة التعليم كغيرها من المهن الأخرى ضمن الحركة الدينامية الغربية التي تجعل لعلماء الغرب وفلاسفتهم كل الفضل في تأصيل التعليم بأساليبه وطرقه ومبادئه وأسسه مما جعل صناعة التعليم

مـهنة تستند إلى الأصـول العـلمية إلى جـانب الاستعدادات الشخصية فتصبح مهنة علم وفن في آن واحد كما توصل إليه علماء التربية الغربيون.

وفي حقيقة الأمر أن هذه المـبادئ والأسس والآداب السلوكية التي تحكم العمل بمهنة التعليم ليست وليدة النظريات التـربوية بـل كـانت لهـا جـذور راسـخة وضـاربة فـي أعـماق التـاريخ الإسلامي منذ نزول الدستور الإلهـي والمـبادئ السماوية والأخـلاقيات القـرآنـية عـلى مـحمد رسول الله للعالمين صلى الله عليه وآله وسلم. وقد خص الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم كل المهن بمبادئ وأخلاقيات عامة وزاد عليها مبادئ وأخلاقيات خاصة بحاملي العلم هي بـمنزلة مـيثاق بـين الله وأصحاب الرسالة العلمية.

وتحاول هذه الدراسة أن تبرز ملامح الرسالة العلمية ومسـؤوليات المـعلمين عـلى اخـتلاف مسمياتهم عرفاء أو فقهاء أو مؤدبين أو علماء أو مـدرسين أو مـعيدين وغـيرهم. والتـطور الذي صاحب نشر العلم كرسالة ثم كمهنة نشأت ونمت ثم تدهورت حتى مـرّت بـأزمان قـوة أدت إلى ازدهارها بفعل عوامل وظـروف يكشـف عـنها التراث العربي بعد أن مرّت بأزمان ضعف أدت إلى انـتكاسها فـيما نـقل إلينـا مـن أخـبار وأفكـار ونـظريات. غـير أن تـدهور العـلم وانـخفاض مستوى كفاءة المعلمين في المـجتمع الإسـلامي في العصر الحديث أصـبح يـمثل مشكـلة أكـثر خـطورة عـمّا حـدث مـن قـبل لأحـوال العـلم والمـعلمين فـي عـصور التـدهور فـي أحـضان الحضارة الإسلامية؛ وذلك لأن الاستعمار الغربي لدول العالم الإسلامي فـي العـصر الحـديث قـد طمس كل ما كان للمسلمين من فضل السبق في كل العلوم وكل المهن، ومن بينها مـهنة التـعليم، فـانقطعت الصـلة بـين المـعلم وبـين الأصـول الإسلامية لمهنة التعليم بعد أن فرض المسـتعمر أفكاره وثقافته ونظرياته التربوية على المعلمين تحت الإعداد في المعاهد والكـليات التـربوية. ومن ثم ضاعت الصـورة المـثلى لمـهنة التـعليم واضطربت فكرة المعلم عن وظيفته ومسؤوليات الوظيفة وغاياتها المحددة.

وتحاول هذه الدراسة كشف مـلامح التـطور والتدهور الذي صاحب التعليم كرسالة ثم كمهنة احترفها فريق لكسب الرزق مع إبراز العلاقة بين المستويات الاجتماعية والاقتصادية للـمعلمين وبين إدراكهم وتقديرهم لمسؤوليات المهنة مـن جهة ونظرة المجتمع للمعلمين من جهة أخرى مع إبـراز أهـمية تـحديد المـواصـفات العـلمية والشخصية للمعلم المسلم فـي العـصر الحـديث والتزامات المهنة من المنظور الإسـلامي كـأحد الأصول المحددة لرسالة المعلم المسلم.

المعلم صاحب رسالة

قد يذهب بعض إلى المغالاة في حقيقة عمل المعلم، وقد يخطئ المعلمون في مـعرفة حـقيقة وظـيفتهم. ومـن المـفيد أن يـعلم المـعلم مـدى مسؤوليته وأن يفهم رسالته ويدرك الغاية الكبرى التي ينبغي أن يصل إليها في أدائه لمـهام عـمله. فالمعلم قد يشترك مع الزارع في خطوات عمله. فالزارع يضع البذرة في الأرض بـعد أن يـمهدها

ويقلبها ثم يرويها حتى تنبت فيرعاها ويحميها من فتك الحشرات والحشائش الضارة حتى إذا نمت واشتد عودها عمل على تهذيب ساقها وتقويمها حتى تستقيم وهي غضة قبل أن يغلظ ساقها. ولايزال المزارع القدير يعنى بشجرته حتى تثمر فاكهة ممتازة. أما إذا أهمل الفلّاح في زراعته فإن النبات قد يفسد ويهلك إذا لم يوفر له الزارع ما يكفل له الحياة والنمو السليم. وهكذا الحال مع التلميذ والمعلم فإذا فسدت تربية التلميذ ولم يلق الرعاية والعناية والتوجيه والحماية من أصدقاء السوء والرفاق المنحرفين، وإذا لم يلق من التهذيب والتقويم فإنه قد ينحرف عن التفكير السليم والسلوك القويم. فإذا عرف المعلم حقيقة وظيفته كان ذلك أدعى إلى معرفة الغاية التي يقصد إليها واستطاع أن يحدد مسلكه الذي يوصله للهدف.

وقد أخطأ المسؤولون عن التعليم حين تعسفوا في تحديد الغاية من التعليم وتكلفوا في تحديد الأهداف العامة والاصطناع فيها، مع أن الغايات التعليمية والأهداف التربوية واضحة لاتحتاج إلى تكلف ولا تدعو إلى تعسف، بل إن الأهداف العامة واحدة في كل زمان ومكان، والأهداف الخاصة متغيرة ومتطورة بتغير الظروف والأحوال. وقد حاول بعض المسؤولين عن التعليم أن يرسموا صورة معنوية للتلميذ الذي يريدون أن يصنعوه، وأخذوا يرسمون الخطط التي تكفل لهم تربيته حتى يصير على مثال الصورة التي ابتدعوها، فكأنهم يحاولون بذلك أن يخلقوا إنساناً على صورة مرسومة وكأنهم يدّعون القدرة على أن يصنعوا الطبائع البشرية كما يصنع المهندس الآلة التي يضع تصميمها. فالفطرة الإنسانية التي خلقها الله وسواها وفطرها قد ألهمها الخير والشر، وما على المعلم إلّا أن يهذبها ويذكيها لتنحو نحو الخير، وقد يفلح المعلم في إذكائها أو قد يخيب فتفسد تلك الفطرة التي فطر الله عليها الإنسان.

ويخطئ المعلمون حين يعتقدون أن بإمكانهم خلق نموذج خاص من جميع أفراد النشء أو بإمكانهم التحكم في المسؤوليات العقلية لجميع المتعلمين وجعلهم جميعاً في مستوى عقلي أو تعليمي موحد ليلائموا طرازاً اجتماعياً مرسوماً، فهذا الاعتقاد غير ممكن التحقيق، وحسبنا أن نقول إن غاية التربية هي الرعاية والتهذيب والتقويم لا الخلق والتبديل في قدرات النشء والشباب. فالطبيعة الإنسانية أكثر تعقداً وأبعد غوراً وأخفى أسراراً من أن تحدد لها صفات محددة. فالأطفال ينمون ويكبرون من تلقاء أنفسهم بين أهليهم ونظرائهم. ولو تركناهم بغير تربية لكبروا ونموا وتربوا، ولكن الخطر في ذلك أنهم يتربون دون تهذيب لطبائعهم ودون توجيه لغرائزهم، فتنحرف بهم عمّا خلقوا له. فالتعسف في التربية، والمغالاة في تحديد الأهداف إلى وجهة مرسومة محددة موحدة لجميع الأبناء هو فساد في التربية، كما أن انعدام الرعاية وترك الناشئة ترعى مهملة فساد آخر لا يقل عن الأول. فإهمال النشء يؤدّي إلى وقوعه تحت مؤثرات كثيرة في البيئة الطبيعية والبيئة الاجتماعية مما يحيط بهم في الحياة وقد يكون فيها الكثير من

عناصر الإفساد والتعطيل والانحراف وتضييع فرص النمو السليم.

والمدرسة في جوهرها عالم مصغر تتوافر فيه ظروف مناسبة للنمو العقلي والجسمي السليم. ووجود النشء فيها يحميهم من المؤثرات السيئة التي تنحرف بهم عن طريق النمو الذي يكفل تحقيق آدميتهم. فالمدرسة بيئة مختارة تسير وفق أفضل الطرق والوسائل والنظريات العلمية المدروسة ومناهج علمية منتقاة يتوافر فيها معلمون معدون إعداداً مسبقاً للقيام بمهمة تربية النشء وتعليمه بما يكفل لهم أن ينموا نمواً سليماً في مجتمع صالح. وسر نجاح المعلمين في أداء مهمتهم هو الأخذ في الاعتبار أن الأفراد المتعلمين يشتركون في كثير ويختلفون في كثير. ففي كل منهم عناصر مختلفة من القدرات والمواهب والاستعدادات، ولكل منهم اتجاهاته الفطرية التي تلعب فيها الوراثة دوراً كبيراً، ولكنها جميعاً تؤلف وحدة يكمل بعضها بعضاً. وتحتاج هذه القدرات والمواهب إلى إظهارها ورعايتها وتوجيهها مما يحقق نمو الفكر والمهارة والنبوغ في مجال معين من مجالات الحياة، ولا ينمو هذا أو يزدهر إلّا من خلال الحياة الاجتماعية المدرسية والتفاعل الإيجابي الفعال بين المعلم والتلميذ، وهذا ما يجعل لرسالة المعلم معنى حقيقياً في الحياة.

وكثيراً ما يتحدث المعلمون عن ميثاق المهنة وكثرة المسؤوليات الملقاة على عاتقهم والصعوبات التي يواجهونها في أداء مهام عملهم وأن التعامل مع البشر أصعب بكثير من التعامل مع الآلة في المصنع، ومن ثم فإن مهنة التعليم من أشق المهن وأن عائدها المادي قليل وقد يعوضهم عن ذلك كله ما يطربهم ويخفف عنهم قول الشاعر أحمد شوقي:

قم للمعلم وفّه التبجيلا

كاد المعلم أن يكون رسولا

ولا ينكر أحد أن مهنة التعليم شاقة وصعبة وأن منغصاتها أكبر من مميزاتها، ولعل من أهم المنغصات أن المعلم في أكثر البلاد ـ إن لم يكن فيها جميعاً ـ من أفقر أصحاب المهن. فشعوره بشرف مهنته إذا كان صحيحاً صادراً عن اعتقاد صادق كان من فضل الله عليه لأنه يهون عليه ما يعانيه من نقص في مادة الحياة وما يفوته من مجد الدنيا وزخرفها. ولكن هذا الشعور يقتضي من المعلمين أن يكونوا أصحاب رسالة حقاً، عارفين بما يريدون منها وما ينبغي لهم أن يتذرعوا به فيها. فما هي هذه الرسالة التي يطرب لها المعلم عندما يسمع نشيدها؟

ممزيات مهنة التعليم ومنغصاتها

قد يخيل لبعض ذوي النظرة السطحية لمهنة التعليم، أن تشبيه المعلم بالرسل يحمل في طياته أن يكون له في قلوب الناس من التقدير والتبجيل ما يشبه تبجيلهم للرسل. ولكن الحقيقة التي يجب أن يعرفها المعلمون هي أن الرسل لم يكونوا في حياتهم موضع التبجيل والتكريم عند أهل عصرهم بل إنهم شقوا طريق دعوتهم ووصّلوا رسالتهم في الصخر الوعر والشوك الشائك ولاقوا من المشقة والهم والضنى والآلام ما لا يقوى على

تحمله إلّا أولو العزم من الرجال، وقد كان نجاح رسالتهم متوقفاً على إيمان طائفة من الحواريين أو الصحابة بعقيدتهم وإصرارهم على حملها ونشرها وتوسيع دائرتها على مدى سنين طويلة حتى تأصلت جذورها وقويت شوكتهم فاعترف بها جموع غفيرة من الناس بعد أن ثبت صلاحيتها وقدرتها على تغيير حياة المجتمع إلى الأفضل. فاكتسبت العقيدة من القوة والانتشار ما جعل الناس يقدّرون ويبجلون صاحب الرسالة على ما عاناه من مشقة وآلام وقت تبليغها دون أن يؤثر ذلك على عزيمته أو يقلل ذلك من إصراره على توصيل رسالته. فإذا شاء المعلمون أن يكونوا مثل الرسل حقاً فعليهم أولاً أن يجمعوا من حولهم حواريين أو صحابة من بين تلاميذهم حتى يكون هؤلاء بالنسبة لهم مثل الصحابة للأنبياء الرسل[1].

ولو أراد المعلم أن يتعرف على طريقة الرسل في بث الإيمان في قلوب أصحابهم فعليه أن يستقرئ حياة الرسول محمدصلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم مع أصحابه وحياته مع قومه قريش وعلاقته بالمؤمنين والكافرين وسلوكه مع كل فئة منهم كما جاء ذكرها في القرآن جملة وفي كتب السيرة تفصيلاً.

وطريقة التعليم المحمدية كما نستنبطها من القرآن ونستدل عليها من كتب السيرة النبوية تعتمد على دعائم أربع هي في مجموعها تمثل سر نجاح الرسولصلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم في نشر العلم السماوي والشريعة الإلهية ما حقق به هداية الناس وحوّلهم من الضلالة والجهالة إلى الهدى والنور، نور العلم ورحمة الإيمان.

ولعل الدعامة الأولى لنجاح العملية التعليمية المحمدية هي وضوح الغاية وتحديد الهدف واقتناعه به.

والدعامة الثانية هي قوة وسلامة المادة العلمية المتمثلة في الآيات القرآنية التي تمثل إعجازاً حقيقياً يفوق قدرة أي إنسان على خلقها، فما كان الرسولصلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ينطق عن الهوى إن هو إلّا وحي يوحى بكلمات صادقة من الله وما كان يعجل بالقرآن والآيات ولا ينقلها إلى الناس إلّا بعد أن يقضي إليه وحيه ويحفظها حفظاً سليماً ويلقنها للناس تلقيناً مرتلاً يسهل حفظها وتذكرها فكان صادقاً في نقل ما تعلمه عن الوحي.

والدعامة الثالثة هي المساواة بين المتعلمين دون تفضيل أحدهم على الآخر، مع العدالة في إتاحة الفرص بينهم. فما يفضل غني على فقير ولا أبيض على أسود ولا عربي على أعجمي. وما كان يبتغي من وراء ذلك أجراً من أحد فكل من المعلم وطالب العلم يعدّ مجاهداً في سبيل الله وأجره عند الله عظيم.

الدعامة الرابعة هي الرفق بالمتعلمين، فكان الرسولصلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم مثلاً أعلى في الرحمة والعفو ولين الجانب في غير ضعف والحزم في غير قسوة، قال تعالى: ﴿ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾[2].

وإذا أراد المعلم أن ينجح في أداء رسالته ويحقق مهمته، فعليه أن يتقبل عن رضا نفس سلبيات مهنة التدريس ومنغصاتها وأن يرضى

بالقليل الذي رزقه به الله دون إهمال أو تقصير في عمله. ومن أجل ذلك فإن مهنة التعليم تتطلب مواصفات شخصية معينة في صاحبها، إذ إنها لا تشبه غيرها من المهن، فهي سهلة كل السهولة إذا نظرنا إليها من بعض جوانبها وهي شاقة كل المشقة إذا نظرنا إليها من الجوانب الأخرى. وأيسر ما فيها أنها تمتاز بالتحرر من القيود والحدود. فقلّما نجد من المدرسين من تقيدهم أعمالهم إلى المكاتب مثل غيرهم من أصحاب الوظائف الأخرى، كما أنه قد لا يضطر المعلم إلى البقاء في المدرسة طوال اليوم، كما أن الدراسة قد لا تستمر في المدارس إلّا لمدّة تسعة أشهر على الأكثر في كل عام، إلى جانب تمتعه بالإجازات في الأعياد القومية والدينية بالإضافة إلى إجازة نصف العام الدراسي.

ومن ناحية أخرى فإن مهنة التعليم تمتاز بالاستقرار والاطمئنان. فمادام الناس ينجبون أطفالاً فهم في حاجة إلى المعلمين.

والميزة الثانية أن المعلم يشحذ ذهنه دائماً في معالجة أمور جليلة تتعلق بموضوع هام من موضوعات الدراسة يزود فيه التلاميذ بطائفة من الحقائق والمعارف التي تنمي فكرهم وتشكل عقولهم وتغير من سلوكهم إلى الأفضل فيتحقق الهدف من رسالته. وأي سعادة يشعر بها المعلم إذا انتهى عمله إلى مثل هذا النجاح. ولكن بعض المعلمين لم يعرفوا مثل هذه السعادة أو قلّما يعرفونها. فمن الطبيعي أن يقاوم بعض التلاميذ معلمهم، ولا بأس عليهم ولا على المعلم في ذلك، فهذه المقاومة دليل على القوة والصلابة وهي حافز قوي للتلاميذ وللمعلم معاً، فالعيب ليس في المقاومة بل هو في استعصاء هذه المقاومة وتحولها إلى التحدي والعداوة. فإذا وجد المعلم أن مقاومة تلاميذه تستمر يوماً بعد يوم أو إذا رآها تتحول إلى فتور جاهم، وخمول كاره، كان ذلك دليلاً بينا على وجود عيب خطير، والعيب قد يكون كامناً في التلاميذ كما قد يكون كامناً في المعلم نفسه أو في الهيئة الإدارية التي تضمهم جميعاً. عند ذلك يكون ما يظهر من التلاميذ أو المعلم عارضاً من أعراض داء وبيل في تلك الهيئة أو مظهراً من مظاهر ذلك الداء. ومهما يكن منشأ العيب فإنه يكلف المعلم مشقة كبرى ويبعث فيه بؤساً شديداً، وهذا العيب أحد مصدرين يسببان أقسى المتاعب في مهنة التعليم. فإذا كان أجر المعلم قليلاً وإن قلة المال تبعث في النفوس مرارة وبؤساً، فإن الأشقى من ذلك هو أن يقضي المعلم حياته ويفني نشاطه يوماً بعد يوم لينير العقول ويوقظ الوعي بكل ما هو جليل ثم يجد أن ذلك كله ذهب هباءً في مجموعة من صبية تجردوا من الأدب والخلق وكان دأبهم السخرية والاستهتار بالمعلم والدرس، فجهد المعلم مع أمثال هؤلاء يضيع سدى.

إن مثل هذا يحدث أحياناً للمعلم الصالح وفي أكثر الأحيان يحدث للمعلم الضعيف أو الخامل. فما هو السبيل إلى تلافي هذه المصاعب؟ وما هي الصفات التي ينبغي أن تتوافر في المعلم لكي ينجح في أداء رسالته؟ وما هي معايير مهنة التعليم؟ وكيف تطورت مهنة التعليم في التراث العربي الإسلامي؟

تطور مهنة التعليم في التراث الإسلامي

منذ ظهور الإسلام لم يكن التعليم في عهد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم مهنة أو حرفة يكتسب من يقوم بها رزقه، بل كان عملاً دينياً يستهدف العامل والصانع والتاجر كبيراً كان أم صغيراً بمبادئ دينه وأصول معاملاته مع الغير وآداب المهنة التي يعمل بها وحدود العلاقات مع الآخرين بل علاقة الفرد بنفسه وعلاقته مع ربه حتى يكون شخصاً سوياً متوافقاً مع نفسه ومع المجتمع في آن واحد. فإذا تعلم الفرد، عليه أن يعلّم غيره حتى يتسع نطاق العلم وينتشر التعليم فيقضي بذلك على أمية المجتمع الذي دخل في الدين الإسلامي. ومن ثم كان ذلك الأسلوب هو ترجمة للوسيلة التي استخدمها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عن طريق تعليم نفر قليل من الناس في بداية الأمر فكان ذلك نواة طيبة لتعليم كافة أفراد المجتمع. وقد استوحى الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم هذا العمل من قوله سبحانه وتعالى: ﴿**فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون**﴾[٣].

فكان الدين الإسلامي هو الدافع وهو الهدف ـ في الوقت نفسه ـ من وراء التعلم. وقد عمل الصحابة رضوان الله عليهم بتوجيهات الرسول صلى الله عليه وآله وسلم واتبعوا أوامره، فانتشروا في الأرض، والإسلام لايزال غضاً والأمة العربية لا تزال جاهلة عاشت عصر الجاهلية قبل دخولها في الإسلام ينقصها العلم والتعليم حتى حمل الصحابة الأمانة فانتشروا[٤] في البلدان معلمين وداعين إلى الله استجابة لأمر الله في قوله تعالى: ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾[٥].

وكان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قد علّم أصحابه ما نزل به الوحي من آيات بينات ليحفظوها ويعملوا بها كما لقّنهم أصول العقيدة وآداب الإسلام فكان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أول مُعلم في الإسلام تلقى تعليماً ربانياً وتدريباً إلهياً بواسطة الوحي فكان خُلقه القرآن. فعندما سأله أبوبكر كيف تعلم وتأدب بهذا القدر العظيم قال له: «أدبني ربي فأحسن تأديبي» فكان اشتغال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بتعليم أهل مكة أمر من الله سبحانه وتعالى إذ أن الله هو الذي بعثه بالعلم ووهبه الحكمة وأدبه[٦] وأمره بأن يقرأ ما تعلمه على الناس كافة.

قال تعالى: ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة...﴾[٧].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنما بعثت معلّماً».

وكان التعليم النبوي تعليماً سلوكياً أما تعليم الصناعات والمهن الحرفية فكان ذلك من شؤون الناس حيث قال لهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أنتم أعلم بشؤون دنياكم»[٨].

وقد اتبع الصحابة الذين أرسلهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لتعليم الأقوام والقبائل نهجه في تعليم من يرغب في دخول الإسلام وقد رسم لهم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم النهج وحدد لهم المنهج حيث قال النبي لمصعب بن عمير[٩] عندما أرسله

إلى أهل يثرب من الأوس والخزرج لتعليمهم قبل الهجرة «أقرئهم القرآن وعلمهم الإسلام وأمهم في الصلاة»، كما قال لمعاذ بن جبل عندما أوفده معلماً مع علي بن أبي طالب إلى قبيلة همدان في منطقة الجند بأرض اليمن ولأبي عبيدة بن الجراح عندما أرسله إلى أهل نجران:

«إنك ستأتي قوماً أهل كتاب فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلّا الله وأن محمداً رسول الله، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لك بذلك بأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لك بذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»[١٠].

وقد أوصى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم المعلمين من الصحابة ببعض الآداب التي يجب أن يتحلّى بها المعلم إزاء المتعلمين فقال لهم: «يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا».

وهكذا قدم رسول الله المعلم صلى الله عليه وآله وسلم للمتعلمين من تلاميذه وصحابته المؤمنين كل ما يعينهم على فهم أمور حياتهم في دنياهم وآخرتهم بتوعيتهم بما أمر الله وما نهى عنه، وإرشادهم وتوجيههم إلى الصراط المستقيم وتلاوة آيات الذكر الحكيم، وتوصية بالحق والعدل والاعتدال والإحسان والصبر وغيرهما. بما أوتي من علم وحكمة فقادهم حيث اهتدوا إلى أحسن القول والفعل والعمل والسلوك.

وقد سار الخلفاء من صحابة الرسول من بعده في هذا الطريق فأرسلوا القرّاء والفقهاء والقضاة إلى الأمصار لتعليم الناس وتبصيرهم وهدايتهم[١١] ونشر العدل بينهم. ولم يمض القرن الأول الهجري حتى ظهر في المجتمع الإسلامي العديد من المعلمين العلماء كجماعات متخصصة في العلوم الإسلامية من فقه وحديث وتفسير وغيرها وقد اتخذوا من المساجد مكاناً للتعليم فعقدوا المجالس وتحلق حولهم طلاب العلم مستمعين ومتعلمين، ولم يكن عملهم بمهنة التعليم احترافاً، بل كان عملاً تطوعياً دون أجر ابتغاء مرضاة الله، فتعليم العلم للناس صدقة وكتمه إثم كبير[١٢]؛ وذلك لأن المعلمين والعلماء لم يكونوا متفرغين للتعليم ولم يتخذوا منه مصدراً لكسب الرزق، بل كان لهم أشغالهم وصناعاتهم وتجارتهم التي لم تمنعهم من التفقه في الدين والتبحّر في العلم وبذل العلم لأهله والطالبين له دون أن يبخلوا بعلمهم على الناس.

وهكذا ظل المعلمون لا ينتظرون أجراً حتى نهاية القرن الأول الهجري رغم كثرة عدد الراغبين في التعلم سواء في الكتاتيب التي أنشأها عمر بن الخطاب، أو في المساجد المنتشرة في الأمصار. وقد اقتدى الصحابة والتابعون والمؤمنون في هذا بالرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم حيث كان يؤدّي رسالة التعليم ابتغاء وجه الله[١٣].

قال تعالى: ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾[١٤].

وقال تعالى: ﴿وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلّا على رب العالمين﴾[١٥].

فاتجه الصحابة والتابعون من بعده هذا الاتجاه فأقرأوا القرآن وفسروه للناس دون أن يأخذوا أو يقبلوا عن ذلك غير الثواب من الله فكانوا يكرهون أن يأخذ المعلم على تعليم القرآن شيئاً[١٦].

وظل الأمر على هذا النحو طوال عصور متتالية حتى بعد أن تعلم الناس أحاديث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بعد جمعها وضمها في منهج التعليم بالإضافة إلى القرآن والتفسير فذهبت طائفة كبيرة من الفقهاء كالحنفية جميعهم، وأحمد بن حنبل، وسفيان الثوري وغيرهم إلى أنه لا يجوز أن يأخذ المعلم أجراً[١٧] على تعليم القرآن والحديث.

وبعد أن تفرعت العلوم الدينية والدراسات الثقافية الإسلامية كان لهم حكم تعلم القرآن والحديث، حيث ظل المعلم يعلم الناس ما وعاه من ثقافة ومعرفة دون أجر بالرغم من المحاولات التي قام بها الخليفة عمر بن الخطاب، وعمر بن عبدالعزيز من ترتيب مرتبات للمعلمين، فقد كتب الحارث معلم البادية لعمر بن عبدالعزيز قال: «ما كنت لآخذ على علم علمنيه الله أجراً»[١٨].

وقد سار أغلب المعلمين على هذا الاتجاه حتى الفقراء منهم، كانوا يجلسون لتعليم الناس دون مقابل، كما فعل ذلك كمال الدين أبو البركات الأنباري الفقيه النحوي الذي كان بابه مفتوحاً لطالبي العلم يعلمهم لوجه الله، وروى «ابن قتيبة» في كتاب «المعارف» أن الضّحاك بن مزاحم وعبدالله بن الحارث وهما من معلمي الصغار[١٩]، كانا يعلمان ولا يأخذان أجراً، وكان جلوس المعلمين للتدريس دون أجر مادي دليلاً على إخلاصهم لرسالتهم وتفانيهم في أداء الواجب، إذ لم يكن هناك دافع لهم سوى خدمة العلم والرغبة في الثواب الإلهي، لذلك اجتمع علماء بلاد ماوراء النهر وأقاموا مأتماً للعلم لما بلغهم خبر بناء المدرسة النظامية ببغداد وقالوا: كان يشتغل بالعلم أرباب الهمم العلية والأنفس الزكية الذين يقصدون العلم لشرفه والكمال به، وإذ صار عليه أجر، تدانى إليه الأخساء وأرباب الكسل فيكون ذلك سبباً لمهانته وضعفه[٢٠].

وليس معنى ذلك أن «نظام الملك» هو أول من رتب المرتبات للمعلمين بل إنها وجدت قبله على نطاق محدود في عهد «عمر بن الخطاب» و«عمر بن عبدالعزيز» ولكن نظام الملك رتبها على نطاق واسع شامل، وفيما يلي أمثلة على ذلك:

قال الإمام الحافظ أبو عبيد القاسم بن سلام المتوفى عام ٢٢٤ هـ. في كتابه «الأموال»:

حدثنا إبراهيم بن سعد عن أبيه سعد بن إبراهيم: أن عمر بن الخطاب كتب إلى بعض عماله «أن اعط الناس على تعليم القرآن» فكتب إليه: إنك كتبت إلي: «أن اعط الناس على تعليم القرآن فتعلمه من ليست له فيه رغبة إلّا رغبة الجعل» فكتب إليه: «أن اعط الناس على المروءة والصحابة»[٢١].

وقال: حدثني نعيم بن حماد عن ضمرة بن ربيعة عن عبدالحكيم بن سليمان عن أبي غيلان

قال : بعث عمر بن عبدالعزيز يزيد بن أبي مالك الدمشقي، والحارث بن يمجد الأشعري يفقهان الناس في البدو (حيث كان البدو في مناطق نائية بعيدة عن العمران ومواطن الثقافة والعلم) وأجرى عليهما رزقاً، فأما يزيد فقبل، وأما الحارث فأبى أن يقبل، وكتب إلى عمر بن عبدالعزيز بذلك، فكتب عمر: «إنا لا نعلم بما صنع يزيد بأساً، وأكثر الله فينا مثل الحارث بن يمجد»[٢٢].

ويبدو أن العامل السياسي كان من أقوى العوامل التي دفعت الحاكم إلى ترتيب مرتبات للمعلمين. حين أدرك الحكام أن المعلم خير أداة لنشر مذهبهم الديني. وبواسطته يمكن جذب أكبر عدد ممكن من المؤيدين لفكرهم وسياستهم حيث قَبِل بعض المعلمين المسلمين في عهد معاوية بن أبي سفيان أن يجلسوا بالمساجد لتعليم الناس ما يسمى بالقصص السياسي[٢٣]، ولم يكن المقصود به خدمة العلم ولا وجه الله بل كان ذلك من أجل الدعاية لفريق معين وللتأثير على الناس بوجهة نظر خاصة.

ومن ناحية أخرى فقد استعان الحكام بأفراد كثيرين من غير المسلمين ليخدموا النهضة العلمية وخاصة من المتخصصين في علوم الطب والفلك والكيمياء والفلسفة وعلم الهيئة وغيرها، وليقوموا على وجه الخصوص بأعمال الترجمة، ومن بين هؤلاء يوحنا بن ماسويه، وجبريل بن بختيشوع، وحنين بن إسحاق وغيرهم يمنحون أجوراً سخية[٢٤] على القيام بهذا العمل.

ومع التوسع في الفتوحات الإسلامية شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً زادت الحاجة إلى المعلمين نتيجة لكثرة صفوف المتعلمين فبرز في الصدر الإسلامي الثاني طبقة من المعلمين المحترفين، كان أكثرهم من الموالي والذميين[٢٥]، ولم يتحرجوا أن يأخذوا أجراً على اشتغالهم بالتعليم، وخاصة بعد أن دخل الفرس في الإسلام وأراد هؤلاء العجم أن يسودوا بقوة العلم والفكر. فهم أصحاب حضارة عريقة وآداب مرعية وثقافات أصيلة، فاتخذوا من العلم أداة للتفوق السياسي والاجتماعي، كما أن العلوم الإسلامية المستحدثة والتي نمت وتقدمت منذ منتصف القرن الثاني الهجري فرضت نفسها على مناهج التعليم في القرن الثالث الهجري، ووجدت استجابة قوية لدى المتعلمين من الأعاجم الذين اتخذوا من العلم مادة لشهرتهم وتفوقهم[٢٦]، فدخل في مهنة التعليم كثير من العرب والعجم وخاصة أن أصحاب الثروة والجاه والحكم قد استخدموا المعلمين الخصوصيين لتأديب أولادهم وتعليمهم في البيوت والقصور.

وهكذا تطورت مع الزمن فكرة إعطاء مرتبات لتصبح شيئاً عاماً وعادياً في المجتمع الإسلامي أياً كان الموضوع الذي يعلمونه، غير أن كثيراً من المعلمين الزهاد ظلوا على الاقتداء بالرسول وصحابته في تعليم العلم خدمة للعلم وابتغاء مرضاة الله، فاشتهر كثير من المعلمين ولم تكن شهرتهم إلى عملهم بمهنة التعليم بل إلى تبحرهم في العلم وتفقههم في الدين وتميزهم بالخلق القويم ومن ثم لقبوا بالعلماء.

وهكذا تحول الاشتغال من واجب ديني ورسالة ربانية إلى مهنة لها خصائص ومواصفات،

يصنف بها إلى مراتب ودرجات تبعاً لتخصصاتهم ومستوى كفاءتهم المهنية وشهرتهم العلمية والخلقية، وتحدد لكل مستوى منهم مرتبات ومكافآت.

فئات المعلمين ومسؤولياتهم المهنية

اختلفت رسالة المعلم ومسؤولياته التعليمية التي يعمل فيها وأهدافها ونوعية المتعلمين بها. وكانت الكتاتيب أكثر المؤسسات التعليمية انتشاراً في المجتمع الإسلامي منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب بالرغم من وجود الكتاتيب في عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم[٢٧]. وإلى جانب الكتاتيب كانت بيوت الأثرياء وقصور الخلفاء والأمراء مكاناً خاصاً لتعليم أبنائهم.

ومن ثم كان هناك ثلاث فئات من المسلمين:

أ ـ معلمو الكتاتيب.

ب ـ المؤدبون الخصوصيون.

ج ـ المدرسون بالمساجد والمدارس.

(أ) معلمو الكتاتيب

كان معلمو الكتاتيب من القراء الحافظين لكتاب الله وهم يمثلون الغالبية العظمى من المعلمين. وكان الهدف الديني هو المحور الرئيسي الذي دارت حوله العملية التعليمية في الكتاب ومن ثم اقتصرت مسؤوليات المعلم على تحفيظ القرآن الكريم وتلقين المبادئ البسيطة للعقيدة الإسلامية، وقد ركزت التربية الدينية على تهذيب سلوك المتعلمين وتكوين العادات الإسلامية، وتأصيل الممارسات العلمية المتعلقة بقيم الدين وتعاليمه في مجال العبادات والمعاملات، إذ كان الآباء يقصدون من وراء إرسال أبنائهم إلى الكتاب اكتساب الثواب من الله عندما يحملون أبناءهم على حفظ القرآن[٢٨].

وقد استدعى تحفيظ القرآن الإلمام ببعض المهارات الأساسية كالقراءة والكتابة ليتمكن المتعلمون من نسخ آيات المصحف أو كتابتها في الألواح وقراءتها للحفظ والاستظهار؛ بينما نظر فئة أخرى من الآباء ذوي القدرات والطموح إلى الكتاتيب كمرحلة تعليمية يحصل فيها الأبناء إلى جانب حفظ القرآن بعض العلوم الثقافية الأخرى من أشعار وقصص وتاريخ ومبادئ نحو وحساب[٢٩]. ومن ثم يكون الأبناء بعد نهاية هذه المرحلة قادرين على القيام بوظائف اجتماعية تكون لهم مصدراً لكسب الرزق مثل كتابة الرسائل والعقود، وإمامة الناس في الصلاة أو الاشتغال في الكتاتيب كعرفاء أو معلمين. بينما نظرت فئة ثالثة من الآباء إلى الكُتاب باعتباره مرحلة تعليمية أولية توصل أبنائهم إلى مرحلة أعلى في التعليم[٣٠].

ومن ثم فقد تنوعت مستويات الكفاءة لدى معلمي الكتاتيب تبعاً لمستويات فئات المتعلمين وأهدافهم التعليمية فكان من بين معلمي الكتاتيب علماء أو أدباء مشهورين، كما كان منهم أصحاب ثقافة غنية متنوعة[٣١]، وفئة ثالثة وهي تمثل الغالبية العظمى لم يكن حظهم من العلم والمعرفة إلّا حفظ القرآن، ولم يكن غريباً أن يكون من بين هذه الفئة الأخيرة من يجهل الحساب ومنهم من يقرأ ولا يكتب؛ ومن ثم فقد كانت الفرصة متاحة

أمام فاقدي البصر ممن لا ثقافة لهم أن يشتغلوا بتحفيظ القرآن في الكتاتيب واحتراف مهنة التعليم، ولم يكن هناك شرط ملزم للمعلمين يركز على الأهلية والكفاءة، فمن آنس في نفسه قدرة على تحفيظ القرآن أو رغبة فيه افتتح مكتباً وارتزق منه. وعندما كثر أعداد هذه الفئة من معلمي الكُتاب محدودي الثقافة اشترطت الإجازة[٣٢]. غير أنه مما يؤسف له أن مشايخ القراءة في عصور التدهور الاقتصادي أصبحوا يمنحون المعلمين إجازتهم مقابل مبلغ من المال، فتدهور التعليم وخاصة بعد أن انخرط في مهنة التعليم نفر من الفاشلين الذين لجأوا إلى احتراف مهنة التعليم هرباً من الجهاد ونكولاً عن الحرب[٣٣].

وبالرغم من أن الكتاتيب قد تفاوتت فيما بينها في مستوى تعليم الأبناء باختلاف نوعية المعلم العريف أو الفقيه من جهة وباختلاف العصر أو البيئة من جهة أخرى، إلّا أن القرآن الكريم كان الأصل وكان البداية والنهاية في كل تعليم، يقول ابن خلدون في مقدمته: «اعلم أن تعليم الولدان للقرآن شعار الدين أخذ به أهل الملة ودرجوا عليه في جميع أمصارهم»[٣٤].

فكان حفظ القرآن بمثابة فرض عين، وجعل ابن سحنون تعليمه إجبارياً في الكُتاب وذلك أخذاً بحديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه».

ونادى ابن سجنون بتعليمه مع إعرابه ورسمه بالشكل وإتقان الهجاء والقراءة الحسنة بحرف نافع من توقيف وترتيل وجعل تعليم المواد الأخرى بالكتاب اختيارية بحسب رغبات الآباء وقدرات المعلمين. وهذه المواد هي الحساب ـ الشعر المختلط ـ أخبار العرب وأنسابهم ـ النحو والعربية ـ الخط الحسن وقد زاد ابن سحنون في هذا الجزء الاختياري تدريب الصبيان على الخطابة ولم يكن ذلك مألوفاً في عصره[٣٥].

أما مسؤولية المعلم في بلاد الأندلس الإسلامية في القرن الرابع الهجري فقد كانت تزيد عن تعليم القرآن وخاصة أن الكتاتيب قد تعدد فيها مستويات التعليم ومراحله، فإذا انتهى الصبي من مرحلة تعليم القرآن وحفظه دخل مرحلة أعلى يلقن فيها علم الحساب والمساحة والفلسفة والطب، ويظل بالكُتاب حتى إذا بلغ سن الحلم فعليه أن يتركه. حيث يدخل في أحكام الرجال[٣٦].

أما أهل المشرق في نظر ابن خلدون فهم يخلطون في التعليم حيث يتحمل المعلم أعباء كثيرة من تحفيظ القرآن وتدريس العلوم وبالذات في مصر[٣٧] حيث يتم إعداد معلمين متخصصين في كل العلوم، وكان إعداد المعلمين يتم خلال فترة تعلمهم في الكُتاب حيث يقرب المعلم منه التلميذ أو الصبي المتقدم والمتفوق في الدروس ويعطيه الفرصة للتدريب على المهنة بتكليفه بإعادة الدرس على زملائه حتى يفهموه مرة أخرى، ومن ثم لقب بعض التلاميذ المتفوقين بلقب المعيد خلال فترة تدريبهم وإعدادهم[٣٨].

وقد برز عدد كبير من المعلمين من بين المعيدين تلاميذ الكُتاب القدامى أو من بين العُرفاء الذين اشتغلوا مدّة بالتعليم نظراً لتميزهم بالسمعة الطيبة علمياً وخُلقياً.

(ب) المؤدبون الخصوصيون

كان من عادة الآباء في المجتمع الإسلامي إذا بلغ الصغار سن التعليم وجب على آبائهم كما أوضح العبدري:

«أن يتخيروا لهم أولاً أهل الدين والتقوى، فإذا كان مع ذلك عنده علم من العربية فهو أحسن؛ فإن زاد على ذلك بالفقه فهو أولى، فإن زاد عليه بكبر السن فهو أجل، فإن زاد عليه بورع وزهد فهو أوجب، إلى غير ذلك»[٣٩].

فحسن اختيار الأسرة للفقيه أو المؤدب يمثل أول خطوة عملية في تربية الأبناء وتعليمهم.

والمؤدب هو معلم خاص يقوم بتعليم طفل أو أكثر من أبناء العظماء والخلفاء وتأديبه وتثقيفه في بيته أو قصره[٤٠]. ويشترك الأب مع المؤدب في اختيار المواد التي يدرسها الابن ويستمر المتعلم في دراسته حتى يصل إلى المستوى المنشود من التعليم الذي يحدده والده. ولكي يشرف المؤدب على تلميذه إشرافاً تاماً كان يخصص له جناح في قصر الأمير ليعيش فيه ويتناول طعامه وشرابه وينام فيه، وكان المؤدب يُعلم تلميذه أربع ساعات أو أكثر كل يوم ويمكث معه سنوات يقضيها في تعليمه.

والمؤدبون كانوا قلة يمثلون صفوة المعلمين الموسوعيين المشهود لهم بالكفاءة وعلو المنزلة ولم يعلموا إلّا أبناء الخلفاء والأمراء يلقنونهم أصول السياسة والأدب والفن والعلم الرفيع، وكثيراً ما استخدمهم الخلفاء في وظائف عليا تقديراً لهم، فكان منهم ولاة وقضاة ومحتسبة[٤١].

▣ يبدو أن العامل السياسي كان من أقوى العوامل التي دفعت الحاكم إلى ترتيب مرتبات للمعلمين حين أدرك الحكام أن المعلم خير أداة لنشر مذهبهم الديني، وبواسطته يمكن جذب أكبر عدد ممكن من المؤيدين لفكرهم وسياستهم، حيث قَبِل بعض المعلمين المسلمين في عهد معاوية بن أبي سفيان أن يجلسوا بالمساجد لتعليم الناس ما يسمى بالقصص السياسي، ولم يكن المقصود به خدمة العلم ولا وجه الله بل كان ذلك من أجل الدعاية لفريق معين وللتأثير على الناس بوجهة نظر خاصة.

وكان الآباء من الخلفاء والأمراء يحترمون المؤدبين لأبنائهم ويعنون بهم عناية كبيرة حتى كان لهم مركز أدبي كبير في المجتمع. ولم يرفض هذه الوظيفة إلّا قليل من الزاهدين لعزة أنفسهم وزهدهم في المال كالخليل بن أحمد، وعبدالله بن إدريس فإنهما كانا يفضلان التدريس للجماعة لا لأبناء الطبقة الخاصة.

كما كان هناك معلمو القصور والبيوت وقد كانوا أكثر نوعاً من المؤدبين بحيث لبوا مطالب العظماء والأغنياء في تربية الأبناء وبالذات في تعليم الجواري والوصيفات وتخريجهن في فنون الأدب والموسيقى وتربية الأبناء، وكان منهم من يعلّم الصناعات البيتية (أعمال المنزل وفن المطبخ) والدقائق الفنية التي لا ترام في غير القصور والبيوتات. وكان معلمو القصور والبيوتات الرفيعة على درجة مناسبة من المعرفة المتسعة، وكانوا يجيدون عملياً أنواع الفنون التي تخصصوا فيها، ولم يكن من السهل مزاولتهم العمل التربوي في المدن الكبرى إلّا بعد الحصول على إجازة تسمح لهم بالتدريس وتبرهن على حسن كفاياتهم المهنية، وكانت هذه الكفاية موضع التنافس بين أولئك المعلمين وعلى أساسها يكون التفاضل والتمايز، وقد ارتبطت بالموسوعية الأكاديمية والأخلاقية المهنية وجودة التدريس(٤٢).

وكان للمؤدبين الخصوصيين طرائقهم في التعليم ولكنها فيما يبدو طرائق مشبعة بروح إنسانية وتجسمها قيم أخلاقية وكفاءات علمية وفنية إذ كان التعليم بالنسبة للمؤدبين صناعة شريفة لها أصولها وقواعدها، وغالباً ما التزموا في تعليمهم برغبات الخلفاء أو آباء تلاميذهم(٤٣). وذلك عكس ما كان عليه معلمو الصغار في الكتاتيب، إذ لم يكن هناك لوائح وقواعد مكتوبة يسيرون عليها ولكنهم اتبعوا تقاليد متوارثة ومعروفة في أوساط المعلمين حيث احتفظ تعليم الصبيان بعرف عملي يتمثل في أساليب مبسطة لا تقوم على نظريات تربوية ولا تتبع مناهج فلسفية وكانت كثافة الكُتاب المتعددة المستويات تختلف من مؤسسة إلى أخرى، فقد يعاني بعضها من قلة التلاميذ، بينما يعاني البعض الآخر من كثرة الأعداد بحيث يضطر المعلم أو الفقيه إلى استخدام زملاء أو عُرفاء مساعدين فيتحول الكُتاب إلى مدرسة تضم فريقاً من المعلمين قد يجهلون فن التعليم وأصول صناعة التربية؛ لذا تباينت أهداف وبرامج التعليم في كل مؤسسة.

فالمؤدبون الذين عملوا في قصور الخلفاء والأمراء كالفراء، والأحمر، والكسائي كانوا على درجة عالية من العلم والثقافة، وكانت لهم شهرتهم ومكانتهم في المجتمع مما جعلهم أهلاً لتعليم أبناء الخلفاء، وقد جرت عادة بعض الخلفاء كهارون الرشيد أن يختبروا كفاءة المؤدبين قبل استخدامهم في تعليم أبنائهم، ولقد اختبر الخليفة المهدي مؤدب ولده ثم طرده لعجزه في النحو، كما أنه تناقش مع «الكسائي» ولمس فيه كفاءة عالية فاستخدمه مؤدباً، وكان يتابع بنفسه تقدم ولده، كما كان المأمون يأمر برفع الألواح والأوراق الخاصة بأولاده كل خميس،

ليراها ويتابع تقدمهم في التعليم، وهكذا فعل الخليفة المكتفي والخليفة المعتز[٤٤].

وقد اختلفت الأغراض التي كان يرمي إليها الخلفاء والأمراء من تربية أبنائهم فقد جاء في وصية عبدالملك بن مروان لمؤدب أولاده:

«علمهم الصدق كما تعلمهم القرآن، وجنّبهم السفلة فإنهم أسوأ الناس ورعاً وأقلهم أدباً، وجنّبهم الجشم فإنهم مفسدة،... وأطعمهم اللحم يقووا، وعلّمهم الشعر يمجدوا وينجدوا، ومرهم أن يستاكوا عرضاً، ويمصوا الماء مصّاً ولا يعبُّوه عبّاً، وإذا احتجت أن تتناولهم بأدب فليكن في ستر لا يعلم به أحد من الحاشية فيهونوا عليه»[٤٥].

«ليكن أول إصلاحك لولدي إصلاحك لنفسك، فإن عيونهم معقودة بك، فالحسن عندهم ما صنعت، والقبيح عندهم ما تركت، علّمهم كتاب الله ولا تملهم فيه فيتركوه، ولا تتركهم منه فيهجروه، رَوِّهم من الحديث أشرفه ومن الشعر أعفّه، ولا تنقلهم من علم إلى علم حتى يحكموه، فإن ازدحام الكلام في القلب مشغلة للفهم. وعلّمهم سنن الحكماء، وجنّبهم محادثة النساء، ولا تتّكل على عذر منّي لك، فقد اتّكلت على كفاية منك».

وفي رواية أخرى:

«علّمهم سير الحكماء وأخلاق الأدباء وكن لهم كالطبيب الذي لا يعجل بالدواء حتى يعرف الداء»[٤٦].

قال هاشم بن عبدالملك لسليمان الكَلْبيّ مؤدب ابنه:

«إن ابني هذا هو جلدة من بين عيني، وقد وليتك تأديبه، فعليك بتقوى الله وأدِّ الأمانة، وأول ما أوصيك به أن تأخذه بكتاب الله ثم رَوِّه من الشعر أحسنه، ثم تخلل به في أحياء العرب فخذ من صالح شعرهم وبصره طرفاً من الحلال والحرام والخطب والمغازي».

وفي عصر الدولة الفاطمية أنشأ الفاطميون في قصورهم مدارس خاصة لتعليم أبناء الولاة وسراة المسلمين وتربيتهم تربية تمكنهم من ملء المناصب الهامة في الدولة.

وتبين القصة التالية التي ذكرها ياقوت في كتاب «معجم الأدباء» أن الخلفاء والأمراء والعظماء يعنون برفع المستوى المالي لمؤدبي أولادهم.

«دخل علي بن الحسن الأحمر (١٩٤ هـ) إلى دار الرشيد ليعلم الأمين وكان الخلفاء إذا أدخلوا مؤدباً إلى أولادهم فرشوا له المجلس بفراش حسن، فجلس في أول يوم، أمروا بعد قيامه بحمل كل ما في المجلس إلى منزله مع ما يوصل به (من الدواب) فلما أراد الأحمر الانصراف إلى منزله دعي من يحمل له ذلك، فقال الأحمر: والله ما يسع بيتي هذا، فما لي إلّا غرفة لا يدخلها غيري، فأمر الرشيد بشراء دار له وجارية، وحمل على دابة، ووهب له غلام، وأقيم له جارٍ (مرتب)... قال محمد بن الجهم: كنا إذا أتينا الأحمر تلقانا الخدم فندخل قصراً من قصور الملوك ويخرج علينا الأحمر وعليه ثياب الملوك»[٤٧].

ولم يكن الأحمر فقط هو الذي استمتع بهذا

العيش الرغيد بسبب اشتغاله بتأديب أولاد العظماء. بل كان جميع المؤدبين ينعمون بنفس النتيجة، يحكي ابن خلكان أن الكسائي رتب له مرتب سخي منتظم وبجانب ذلك فقد أعطي له ـ في أول عهده بمهمته ـ عشرة آلاف درهم وجارية حسناء بجميع ما تحتاجه وخادم وبرذون بجميع آلاته.

وفي إحدى المناسبات منح الخليفة المتوكل «ابن السكّيت»* مؤدب ولده مبلغ خمسين ألف دينار بالإضافة إلى مرتبه المنتظم. وكثيراً ما حصل المؤدبون بالإضافة إلى ذلك على مساكن وأطعمة منتظمة وغيرها من الهدايا والمنح[٤٨].

ج ـ المدرسون بالمساجد والمدارس

خظيت هذه الطائفة من المعلمين بكثير من الإجلال والتقدير والتعظيم[٤٩]، وكان تقدير طلابهم ومريديهم لهم قد نبع من تقدير الواعين منهم لقيمة العلم في صدر الإسلام. فقد ذكر البدر ابن جماعة في كتابه «تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم» قولَ أبي الأسود الدؤلي:

«ليس شيء أعز من العلم، الملوك حكام على الناس، والعلماء حكام على الملوك...»[٥٠].

وذكر السيوطي في «تاريخ الخلفاء»:

إنه قيل لأحد أكابر الخلفاء: قد حقق الله لك كل مرغوب ومأرب، فهل بقيت لذة أو بغية لم تنالها؟ فقال: نعم، بقيت لذة واحدة هي أعلى من جميع ما نلته، وأفخم من كل ما باشرته، بل لم تقرب منها ـ فضلاً عن أن تساويها ـ من لذة الدنيا، ولا مرتبة من مراتب الخلافة العليا، وهي أن أجلس مجلساً كمجلس مشايخ الحديث فأملي وأشرح وأفيد[٥١].

وقد عني المسلمون بتلقي العلم على أيدي مشايخهم من المدرسين في المساجد عناية ملحوظة وكرهوا كراهة شديدة أن يتلقى الطالب العلم من الكتب وحدها. وإن بعضهم يقول: من أعظم البلية تشييخ الصحيفة (أي أن يتعلم الناس من الصحف[٥٢] أي الكتب دون معلم) وورد في كتاب الشكوى: «من لا شيخ له فلا دين له، ومن لم يكن له أستاذ فإمامه الشيطان».

وقيل إن أبا حنيفة النعمان قد مرّ بالمسجد فوجد جماعة من الطلاب يتدارسون في الكتب،

---

* وأمرُ ابن السكّيت هذا عجيب. كان من أكابر النحاة واللغويين، والسكّيت لقب أبيه إسحاق. أخذ عن أبي عمرو الشيباني والفرّاء وابن الأعرابيّ، وأخذ عنه أبو سعيد السكرّي وأبو عِكْرِمَة الضبيّ. قال أبو العباس ثعلب: أجمع أصحابنا أنه لم يكن بعد ابن الأعرابي أعلم باللغة من ابن السكّيت. وكان المتوكل قد ألزمه تأديب ولده المعتزّ بالله. وقد روي في قتله: أن المتوكل كان كثير التحامل على علي بن أبي طالب عليه‌السلام وابنيه الحسن والحسين عليهما‌السلام، وكان ابن السكّيت من المحبين الموالين لهم عليهم‌السلام، فلمّا قال له المتوكل: من الأفضل، ابناي هذان أم الحسن والحسين؟ فقال ابن السكّيت: إنّ قنبراً خادم علي عليه‌السلام خير منك ومن ابنيك. فقال المتوكل: سلّوا لسانه من قفاه. ففعلوا ذلك به فقُتل. وذلك في ليلة الاثنين لخمس خلونَ من رجب سنة أربع وأربعين ومئتين (٢٤٤ هـ.) ٨٥٩ م. قيل: والسكّيت لقب عرف به لأنّه كان كثير السكوت طويل الصمت. (مقدمّة كنز الحفاظ في كتاب تهذيب الألفاظ).

فسأل: هل لهم رأس (أي شيخ معلم) فقيل: لا، قال: هؤلاء لم يتعلموا شيئاً.

وذكر محيى الدين بن العربي في رسالته «محاضرات الأبرار» أنه روي عن مصعب بن الزبير أنه قال: إن الناس يتحدثون بأحسن ما يحفظون، ويحفظون أحسن ما يكتبون، ويكتبون أحسن ما يسمعون، فإذا أخذت الأدب فخذه من أفواه الرجال، فإنك لا تسمع إلّا مختاراً ولؤلؤاً منثوراً»[٥٣].

وذكر ابن جماعة في «تذكرة السامع والمتكلم» روي عن الإمام الشافعي قوله: «من تفقه في بطون الكتب ضيع الأحكام»[٥٤].

ولا يكتفي ابن جماعة بأن ينصح الطالب بتلقي العلم عن مدرس، بل يزيد على ذلك بأن ينصح الطالب أن يختار مدرساً يكون له مع من يوثق به من مشايخ عصره كثرة بحث وطول اجتماع، ولا ممن أخذ من بطون الأوراق، ولم يعرف بصحبة المشايخ الحذاق.

وكانت المساجد مفتوحة يقصدها من يأنس في نفسه الكفاءة لتعليم الناس، ولم يكن على المدرس بطبيعة الحال أن يعلم موضوعاً بذاته، بل كان يعظ الناس بما يعرف، ويفتيهم ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وقد ظل المدرسون والعلماء يقصدون المساجد ليؤدوا هذا العمل دون انتظار من يحثهم على الذهاب، وظل الناس يلتفون حولهم ويأخذون عنهم من غير أن تتدخل الحكومات في ذلك مادام المدرس غير معين منها، ومادام لا يتقاضى من الدولة على عمله أجراً، فقد ترك له أن يدرس ما شاء وقتما شاء.

وجدير بالذكر أن المعلمين قد عاشوا في بحبوحة من العيش، ونعموا بمستوى مالي مرموق إذ أضفى عليهم الخلفاء والسلاطين والعظماء كثيراً من عنايتهم، وأمدوهم بهبات متجددة، وأفضال لا تنقطع، فقد حكي عن المأمون أن ما منحه لإسحاق بن حنين كان كثيراً وكانت منحه له متصلة وهباته لا تتوقف[٥٥].

وعندما أنشئت المدارس وعين المدرسون بها كان هؤلاء يتناولون مرتبات شهرية منتظمة من الخزانة العامة أو من إيراد الأوقاف التي كانت عادة تُعيَّن لينفق من ريعها على هذه المدارس[٥٦]، وقد كانت هذه المرتبات تختلف باختلاف مكانة المدرس وريع الوقف، ولكنها كانت على العموم أميل إلى الجود والسخاء.

وهناك نوع آخر من المدرسين ذلك النوع هو المدرسون الذين كانوا يعلمون الثقافة العالية ويتقاضون أجورهم من الطلاب. فكأن مؤسساتهم كانت مدارس خاصة أنشأها هؤلاء المعلمون.

وقد نعم هؤلاء المدرسون بمستوى مالي لائق، إذ كان الطلاب يبذلون أقصى ما يطيقون ليحصلوا العلم. حدّث الزجاج قال: كنت أخرط الزجاج فاشتهيت النحو، فلزمت المبرد لتعلمه، وكان لا يعلم مجاناً، فقال لي: أي شيء صناعتك؟ قلت: أخرط الزجاج وكسبي كل يوم درهم ودانقان أو درهم ونصف، وأريد أن تبالغ في تعليمي وأنا أعطيك كل يوم درهماً، وأشرط لك أن أعطيك إياه إلى أن يفرق الموت بيننا استغنيت عن التعلم أو احتجت إليه. قال: فلزمته وكنت أخدمه

في أموره ذلك وأعطيه الدرهم فينصحني في العلم حتى استقللت، فجاءه كُتاب بعض بني مازمة من الصراة يلتمسون معلماً نحوياً لأولادهم. فقلت له: أسمني لهم، فأسماني فخرجت فكنت أعلمهم وأنفذُ إليه في كل شهر ثلاثين درهماً وأزيده بعد ذلك بما أقدر عليه، ومضت مدة على ذلك، فطلب منه عبيد الله بن سليمان مؤدباً لابنه القاسم فقال له: لا أعرف لك إلّا رجلاً زجاجاً بالصراة من بني مازمة فكتب إليهم عبيد الله فاستنزلهم عني فنزلوا له، فأحضرني وأسلم القاسم إليّ فكان ذلك سبب غنائي وكنت أعطي المبرد ذلك الدرهم في كل يوم إلى أن مات ولا أخليه من التفقد بحسب طاقتي[٥٧].

وكان محمد بن علي بن إسماعيل المعروف بميرمان قيماً بالنحو، وكان لا يقرئ كتاب سيبويه إلّا بمئة دينار[٥٨]، كما كان الشيخ شمس الدين السيوطي عالماً بالعربية، ماهراً فيها، حسن التعليم لها، كان يقرئ كل بيت من ألفية ابن مالك بدرهم[٥٩].

تدهور أخلاقيات مهنة التعليم وتدني نظرة المجتمع للمعلمين

اجتمع العديد من العوامل التي أثّرت بشكل مباشر على تدهور مهنة التعليم، وتدني نظرة المجتمع إلى المعلمين وخاصة معلمي الصغار. فقد دخل في مهنة التعليم أناس ليس لهم الموهبة والكفاءة العلمية اللازمتان للاشتغال بهذه المهنة. إذ ساهم الخلل الاقتصادي وارتفاع مستوى المعيشة في بعض العصور إلى جانب ضعف الحكام واحتراف السياسة وانتشار الخلافات المذهبية والمنازعات السياسية، وزيادة الطلب على التعليم بتقدم العلوم واشتغال المتعلمين بالوظائف الرئيسية والهامة في الدولة ودواوين الحكومة، بالإضافة إلى تمسك المؤمنين والصالحين بالحديث النبوي «طلب العلم فريضة على كل مسلم» أن أصبح التعليم عملاً شعبياً منتشراً يحرص عليه الآباء لتعليم الأبناء، ومن ثم زادت الحاجة إلى المعلمين فدخل في المهنة أعداد ضخمة من المعلمين الذين اتخذوها وسيلة لكسب الرزق وأصبحت مهنة التعليم مهنة من لا مهنة له، واشتغل به أناس من مختلفي البيئات والمستويات والمذاهب والأديان، وكانت لهم أوضاع اقتصادية واجتماعية متفاوتة إلى حد كبير.

غير أن تعليم الصغار لم يكن بالنسبة لكثير من المعلمين عملاً مربحاً أو مرموقاً في المجتمع مما اضطرهم إلى أساليب شخصية ذات صفة نفعية تتنافى مع المبادئ الأخلاقية للمهنة[٦٠]، إذ لجأ بعض المعلمين وخاصة معلمي الكتاتيب إلى قبول الهدايا التي يقدمها التلاميذ وآباؤهم بعضها هدايا عينية كالسمن والدقيق وأرغفة العيش مختلفة الأشكال والأحجام، وتبين لنا النصوص في كتب التراث مدى تدهور الحالة المالية والمستوى الاجتماعي لمعلمي الصغار لدرجة أنهم اتخذوا من البعض مجالاً للسخرية والتهكم فقد قال أحد الشعراء[٦١] في الحجاج وكان معلم كُتّاب أطلق عليه أسم كليب :

أينسى كليب زمان الهزال
وتعليمه سورة الكوثر
رغيف له فلك دائر
وآخر كالقمر الأزهر

وقد كان لتدهور الأحوال المالية لمعلمي الكُتّاب وقبولهم الهدايا من التلاميذ أن أثر ذلك على التفرقة في المعاملة التربوية بين أبناء الموسرين الذين يدفعون بكرم وسخاء، وأبناء الفقراء الذين كان نصيبهم الإهمال والاستخدام والقسوة في العقوبة. إذ لجأ بعض المعلمين إلى استخدام الصغار الفقراء في أداء مصالح شخصية لهم لا صلة لها بالتعليم[٦٢].

ومن ناحية اخرى فقد أدى تدهور الأحوال المالية لمعلمي الكتاتيب إلى الاشتغال بأعمال خارجية تصرفهم عن أداء مهامهم الأساسية في التعليم فكان منهم من يترك الدرس لحضور الشهادة بأجر في مجالس القضاء، ومن يمشي في الجنائز ويؤدّي طقوسها بأجر، ومن يشهد عقود الزواج، ويقوم بنسخ المخطوطات، أو يعمل بتحرير الرسائل، أو يشتغل بالتجارة[٦٣]. وقد أدى الطمع ببعض المعلمين إلى قبول أعداد متزايدة من الأطفال في المكتب بغية الحصول على أجر وزيادة الدخل مع إهمال التدابير اللازمة لمساعدتهم على التعليم[٦٤]، ومن سوء السلوك المهني قيام بعض المعلمين بأساليب دعائية مضادة تسيء إلى سمعه الزملاء الناجحين المخلصين في عملهم وتجريح الآخرين بقصد سحب الأطفال من كتاتيبهم[٦٥]. ونظراً لتفشي مثل هذه الانحرافات في أخلاقيات المهنة فقد حاول علماء التربية المسلمين علاج مثل هذه الظاهرة الاجتماعية المرضية في دراستهم ومؤلفاتهم حيث شغلت أذهان الكثيرين منهم فكانوا أسبق من غيرهم ومن علماء التربية الغربيين في العصر الحديث في تناول الأسس والمبادئ الخلقية التي تقوم عليها المهن. كما وضحوا طبيعة مهنة التعليم[٦٦] وما تستدعيه من صفات خلقية وقدرات شخصية ومواهب طبيعية ينبغي توافرها لدى المعلمين وغيرهم من أصحاب المهن الأخرى من أجل الاضطلاع بأعمالهم وتحقيق الأهداف المنوطة بها. فكثر التأليف في أخلاقيات مهنة التعليم وآداب المعلمين والمتعلمين، وكان أول مرجع علمي كتب بأسلوب منهجي من تأليف ابن سحنون (٢٠٢ ـ ٢٥٦ هـ) ثم توالت بعد ذلك مؤلفات المسلمين في هذا الموضوع أمثال القابسي، والغزالي، والنمري القرطبي، وابن عبدون، وبدر الدين بن جماعة، والسبكي، وطاش كبرى زاده وغيرهم كثيرون.

ومن ناحية أخرى فرضت الدولة عقوبات مناسبة على مثل هذا السلوك المنحرف وأضافت إلى وظيفة المحتسب مسؤوليات أخرى فكان من سلطته مراقبة سلوك المعلمين لحملهم على الالتزام بآداب المهنة، كما كان المحتسب يعاقب أو يحيل إلى القضاء المعلم الذي يتسبب في ضرب مبرح بجسم المتعلم أو يصيب بالتلف أحد أعضاء جسمه[٦٧]، ومع ذلك فلم تكن تكتشف كل الحالات أو يتم ضبطها ولم يستطع المحتسب أن يقضي على كل المخالفات والانحرافات المهنية

في التعليم بل تزايدت وتحدت كل سلطة.

وقد ساعدت هذه الانحرافات الخلقية في آداب مهنة التعليم على رسم صورة سيئة في أذهان الناس عن معلم الصغار وعظمت فيها المبالغة إلى الدرجة التي أصبح معها معلم الصبيان في موضع الدونية، وتحت مستوى النضج والاكتمال يضرب به المثل في الحمق ويطرد من مجالس الرجال ويمنع من أداء الشهادة ويفضل عليه النساء[٦٨].

وقد روى الجاحظ أن من أمثال العامة قولهم: «أحمق من معلم كتاب» وما رواه عن بعض الحكماء أنه قال: «لا تستشيروا معلماً، ولا راعي غنم، ولا كثير القعود مع النساء»[٦٩].

روى ياقوت في كتابه «معجم الأدباء» أن «الصاحب بن عباد» بلغه أن أبا حيان التوحيدي عاب رسائله ورَغَّب عن نسخها، فتوعده الصاحب وهدده فقال أبو حيان: «يتوعدني... كأني طعنت في القرآن... أو عقرت ناقة صالح، أو سَلَحَت في بئر زمزم، أو قلت... كان الصاحب معلم صبيان»[٧٠].

وبالرغم من تفشي هذه الظاهرة المرَضية بين معلمي الصبيان وتدني نظرة المجتمع للمعلمين، إلّا أنه كان من بينهم معلمون شرفاء وأتقياء مخلصون لعملهم نالوا تقدير واحترام تلاميذهم.

يقول الجاحظ في كتاب «البيان والتبيين»:

«... فإن ذهبوا إلى معلمي كتاتيب القرى، فإن لكل قوم حاشية وسلفة فما هم في ذلك إلّا كغيرهم، وكيف تظن الظنون بمعلمي الكتاتيب جميعاً وفيهم الفقهاء والشعراء والخطباء مثل الكميت بن زيد، وعبدالحميد الكاتب، وقيس بن سعد، وحسين المعلم، وأبي سعيد المعلم، وماكان عندنا بالبصرة رجلان أدرى بصنوف العلم ولا أحسن بياناً من أبي الوزير وأبي عدنان المعلمين»[٧١].

وترجع هذه النظرة الدونية للمعلم المخالفة لروح الإسلام إلى أنه كان بين هذه الطائفة من معلمي الكتاتيب جماعة احترفوا هذه المهنة بثقافة ضحلة، ودون علم، وبأخلاق دعت أحياناً إلى امتهانهم والتقليل من شأنهم، وهؤلاء جلبوا السمعة السيئة إلى الطائفة كلها، وأحياناً إلى المعلمين جميعاً. ويحدثنا ابن حوقل في كتاب «صورة الأرض»[٧٢] عن أساليب امتهان هذه الجماعة ـ سيئة السمعة ـ مهنة التعليم، وقد ذكر لذلك سببين:

الأول: أنه قد صدر في صقلية وفي مدينة بُلُرم مرسوم بإعفاء المعلمين من الجهاد والغزو. فدخل في المهنة ما يزيد عن ثلاثمئة مُعلم وكان أغلبهم من الجهلاء بالعلم ولا أخلاق لهم.

الثاني: أن بعض المعلمين أرادوا أن ينتهزوا فرصة كونهم حملة القرآن وأن شهادة الحق تتوقع منهم، فاحترفوا الشهادة ليأخذوا أجراً على تأديتها دون تفرقة بين شهادة العدل والزور. ولهذا يحذر «ابن عبدون» في رسالته من قبول شهادة هؤلاء على الإطلاق[٧٣]. فقد أساء هؤلاء إلى سمعة معلمي الكتاتيب جميعاً حتى أصبحت عبارة «معلم الصبيان» مثلاً يضرب للضعة والامتهان.

ويضيف بعض المستشرقين آراءهم في

أسباب انحطاط مهنة التعليم وتدني نظرة المجتمع إلى معلمي الصبيان، إلى أن من دخل في هذه المهنة كان معظمهم من الموالي كما كان أغلب معلمي القراءة والكتابة في العهد الإسلامي الأول من الذميين والعبيد مما أدّى إلى احتقار العرب لمعلمي الصبيان شأنهم في ذلك شأن أصحاب المهن والحرف والأعمال الخدمية التي قامت بها هذه الفئات. ويقول «آدم ميتز» في كتابه «الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري». لعل كثيراً مما لحق المعلمين من ضروب الاستهزاء يقع إثمه على الروايات والمسرحيات اليونانية الهزيلة التي تدور حول شخصية معلم الصبيان لأن المعلم فيها كان من الشخصيات المضحكة[٧٤].

ومن هنا فإن هذه الظاهرة الاجتماعية المرَضية يجب ألا تجعلنا نغفل التقدير والاحترام الذي أحاط المعلمين العرب من الرعيل الأول الذين أسهموا بجهدهم وإخلاصهم للارتقاء بالتعليم فكان منهم وخاصة في الصدر الإسلامي الأول الفقهاء الأتقياء الذين خدموا العلم دون انتظار للأجر أو الشكر، وأحبوا تلاميذهم وعطفوا عليهم وخاصة اليتامى والفقراء منهم، ولكنهم كانوا من القلة بحيث ضاع أثرهم وسط الكثرة من المعلمين الذين انحرفوا بأخلاقيات المهنة إلى أنماط سلوكية كانت في موضع النقد والتجريح، وحطت من كرامتهم وقيمتهم في نظر المجتمع.

ومن ناحية أخرى قد عيب على الصبيان في عصور مختلفة أنهم جهلة بصناعة التعليم، تنقصهم المعرفة والخبرة والدراية بفنون المهنة، ويقدم لنا «ابن عبدون» في رسالته «القضاء والحسبة» هذا المعنى فيقول: «التعليم صناعة تحتاج إلى معرفة ودربة ولطف، فإنها كالرياضة للمهر الصعب الذي يحتاج إلى سياسة ولطف وتأنيس حتى يرتاض ويقبل التعليم، وأكثر المؤدبين جهال بصناعة التعليم؛ لأن حفظ القرآن شيء، والتعليم شيء آخر، لا يحكمه إلّا عالم به، ومعنى التأديب أن يعلمه حسن الألفاظ في القراءة والخط الحسن والهجاء وتجويد التلاوة، وليس شيء أنفع للإنسان من شيئين: أما لمن يكتب ويقرأ فإقامة الهجاء، وأما لمن يبيع ويشتري فمعرفة الحساب»[٧٥].

كما أكد ابن خلدون في كتاب «المقدمة» حقيقة القصور والنقص في الاستعداد المهني عند معلمي الصغار في المغرب، وعلل ذلك بغياب الحضارة، وتناقص العمران، وفقدان الأصول والأسس العلمية للصنائع، ومنها صناعة التعليم[٧٦].

وفي العصر التركي زادت أحوال العرب المعلمين سوءاً وتدهور التعليم نتيجة لإهمال العثمانيين للحياة العلمية والتعليمية في البلاد فأصبحت الكتاتيب مجرد أماكن لاحتجاز الصغار ساعات من النهار يرددون القرآن على أيدي محفظين لا يعرفون من أمور العلم والثقافة شيئاً مما أمعن في زيادة تدني نظرة المجتمع للمعلمين[٧٧].

وقد ساعد على بقاء هذه الحالة السيئة للمعلمين، وقد عدوا بمئات الآلاف في المجتمعات الإسلامية، أنهم لم ينخرطوا في

تنظيم مهني يشكل قوة كبرى مؤثرة في المجتمع فـفقدوا التـضامن والتسـاند ولم يـعرفوا مـعنى التعاون، ولم يقدروا روح الزمالة الطيبة، فأساءوا إلى أنفسهم وإلى مهنتهم[٧٨]. وكان يـرجـى لهـذا الوضع أن يتغير ولو نسبياً ولو أن تغييراً طـرأ فـي مسـتوى أدائـهم أو تـجديداً أصـاب تـدريسهم وحسن من سلوكهم بحيث يـحمل النـاس عـلى تغيير نظرتهم إلى فضل مهنتهم، ولكن الكـتاتيب ظلت على حالها مـن الجـمود والتـخلف وظـل معلموها على حالهم من الفقر والتدهور حتى قدر لها أن يقضى عليها فـي العـصر الحـديث ويـأتي المجتمع بغيرها.

وبعد هذا العرض السابق لأحـوال المـعلمين عبر العصور الإسلامية وحـتى العـصر الحـديث وجب التساؤل الآتي:

هل تمكن معلمو الصغار أو ما يطلق عليهم في العصر الحديث مـعلمو المـرحـلة الابـتدائـية أن يسـموا بـمهنتهم وتـرتفع مكـانتهم ويـرتقوا بمسؤولياتهم ويحققوا لأنفسهم قدراً من الاحترام والتقدير في المجتمع؟

أم لم يستطيعوا أن يغيروا من نـظرة المـجتمع المتدنية لفئتهم بالرغم من:

أ ـ ارتفاع مستواهم المهني والأكاديمي عـن ذي قبل بعد إعدادهـم إعـداداً خـاصاً أكـاديمياً وتربوياً، يتعلمون من خلاله فنون المهنة وأصولها ونظرياتها العلمية والتربوية.

ب ـ انضمامهم وتجمعهم في نقابة خاصة بهم ترعى شؤونهم مهنياً واجتماعياً.

ـ للبحث صلة ـ.

الهوامش

١. جلبرت هايت: فن التعليم، ترجمة محمد فـريد أبـو حديد، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٥٤، ص ١٩.

٢. سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.

٣. سورة التوبة، الآية: ١٣٢.

٤. د. محمد قمبر: نهضة التـعليم فـي التـراث العـربي، حلقة دراسية في سلطنة عمان ومسقط في «إعـداد المعلم العربي»، من ٢٤ فبراير ـ أول مارس ١٩٧٩، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ص ٧.

٥. سورة آل عمران، الآية: ١٠٤.

٦. أمـينة أحـمد حسـن: نـظرية التـربية فـي القـرآن وتطبيقاتها في عهد الرسول صـلى الله عليه وآله وسلم، دار المعارف ١٩٨٥، ص ١١٦.

٧. سورة الجمعة، الآية: ٢.

٨. محمود قمبر: مهنة التعليم في التراث العربي، مرجـع سابق، ص ٨.

٩. أحمد شـلبي: تـاريخ المـناهج الإسـلامية ـ مكـتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٧٨، ص ١٩.

١٠. أمينة أحمد حسن: نظرية التربية في القرآن: ١٧١.

١١. عـلي حسـن الخـربوطلي: الحـضارة العـربية الإسلامية، مكتبة الأنجلو المصرية، بدون تـاريخ، ص ٣٣٠ ـ ٣٣٣.

١٢. ابن عبدالبر النمري القـرطبي: جـامع بـيان العـلم وفضله، المدينة المنورة، المكتبة السلفية، ج ١، ٢، عام ١٩٦٨، ص ٤ ـ ٦.

١٣. محمود قمبر: مهنة التعليم في التراث العربي، مرجع سابق، ص ٧.
١٤. سورة الجمعة، الآية: ٢.
١٥. سورة الشعراء، الآية: ١٦٤.
١٦. ابن قتيبة: عيون الأخبار، ج ٢، ص ١٣.
١٧. السمرقندي: مقدمة بستان العارفين.
١٨. ابن عبدالحكم: سيرة عمر بن عبدالعزيز، ص ١٦٧.
١٩. ابن قتيبة: المعارف، ص ١٨٥.
٢٠. ابن قتيبة: كشف الظنون، ج ١، ص ١٥٠.
٢١. أبو عبيد القاسم بن سلام: الأموال: تحقيق وتعليق محمد خليل هراس، دار الفكر، عام ١٩٧٦، ص ٣٣٣.
٢٢. المصدر نفسه، ص ٣٣٤.
٢٣. أحمد شلبي: التربية الإسلامية، مرجع سابق، ص٢٣٦.
٢٤. المصدر نفسه.
٢٥. كمال البازجي: معالم الفكر العربي في العصر الوسيط، بيروت، دار العلم للملايين، ط ٤، عام ١٩٦٦، ص ٧٦ـ٧٧.
٢٦. محمود قمبر: مهنة التعليم في التراث العربي، مرجع السابق، ص ١٠.
٢٧. أسماء حسن فهمي: مبادئ التربية الإسلامية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٤٧، ص ٢٣.
28. Ed., michaux - Belaire : Maroc un Buisson (F.) Nouveau Dictionnaire de Pedagogie, Paris,
٢٩. ابن خلدون: المقدمة، طبعة القاهرة، المكتبة التجارية الكبرى، د. ت، ص ٥٣٨ـ ٥٤٠.
٣٠. محمود قمبر: مهنة التعليم في التراث العربي، مرجع سابق، ص ١٣.
٣١. الأصفهاني: كتاب الأغاني، ج ٤، ص ٨٥.
٣٢. أحمد فؤاد الأهواني: التعليم عند القابسي، ص١٧٨.
٣٣. أحمد شلبي: التربية الإسلامية، مرجع سابق.
٣٤. ابن خلدون: المقدمة، مرجع سابق، ص ٥٣٧.
٣٥. أحمد فؤاد الأهواني: التربية في الإسلام أو التعليم في رأي القابسي، مرجع سابق، ص ٥٦.
٣٦. محمد منير مرسي، محمود قمبر: مجلة دراسات في التربية الإسلامية، المجلد التاسع، مركز البحوث التربوية، قطر، ١٩٨٥، ص ٢٢٦.
٣٧. ابن خلدون: المقدمة، مرجع سابق، ص ٥٢٩.
٣٨. السبكي: معيد النعم ومبيد النقم: ص ١٥٤ـ ١٥٥.
٣٩. ابن الحاج: المدخل ج ٢، بيروت، دار الكتاب العربي، ط ٢، ١٩٧٢، ص ٣٣٣.
٤٠. ابن جماعة: تذكرة السامع والمتكلم، ص ١٧.
٤١. عباس محمود العقاد: التعليم عند العرب في الكتاب، القاهرة، دار المعارف للطباعة والنشر، يناير ١٩٤٦، جزء ٣، ص ٢٦٦.
٤٢. محمود قمبر: مهنة التعليم في التراث العربي، مرجع سابق، ص ١٦.
٤٣. علي حسن الخربوطلي: الحضارة العربية الإسلامية، مرجع سابق، ص ٣٠١ـ ٣٠٢.
44. Munir UD., Din Ahmed: Muslem Education and Scholars status up the 5ht century Er in the light of Baghdad History Veralg, Dar Islam Zurich, 1968, PP. 46-46.
ـ على حسن الخربوطلي: الحضارة العربية الإسلامية مرجع سابق، ص ٣٣٢ـ ٣٣٦.
٤٥. على حسن الخربوطلي: الحضارة العربية الإسلامية، مرجع سابق، ص ٣٣٢ـ ٣٣٦.
٤٦. محمود عطية الإبراشي: التربية الإسلامية وفلسفتها، القاهرة، الحلبي وشركاه، ١٩٦٩، ص ٢٥.
٤٧. ياقوت: معجم البلدان، ج ٥، ص ١١٠، مرجع سابق.

٤٨. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٤٦١.
٤٩. زكي مبارك: النثر الفني، ١٩٣٥، القاهرة، ج٢، ص ٢٩ ـ ٥٠.
٥٠. ابن جماعة: تذكرة السامع، ص ١٠.
٥١. السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ١٣١.
52. Journal Asiatique 1840, PP. 184, 285.
٥٣. محيى الدين بن العربي: محاضرات الأبرار، ص ٣.
٥٤. ابن جماعة: تذكرة السامع، ص ٨٧.
٥٥. أحمد شلبي: مرجع سابق، ص ٢٤٣.
٥٦. المقريزي: الخطط، ج ١، ص ٤٠١ ـ ٤٠٢.
٥٧. ياقوت: معجم البلدان، مرجع سابق، ص ٤٧ ـ ٤٨ (ص ٣٠).
٥٨. السيوطي: بغية الوعاة، ص ٧٤، (١٣٢٦ هـ).
٥٩. المصدر نفسه، ص ٣٧، (ص ٣٠).
٦٠. محمود قمبر: مهنة التعليم في التراث العربي، مرجع سابق، ص ٢٠.
٦١. أسماء حسن فهمي: مبادئ التربية الإسلامية، مرجع سابق، ص ٣٦.
٦٢. أحمد فؤاد الأهواني: التربية في الإسلام أو التعليم في رأى القابسي، مرجع سابق، ص ٢٠٦.
٦٣. ليفي بروفنسال: ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب، ص ٢٥، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، عام ١٩٥٥.
٦٤. ابن عبدون: رسالته الأندلسية، ص ٢٥.
٦٥. أسماء حسن فهمي: مبادئ التربية الإسلامية، مرجع سابق، ص ١٣٦ ـ ١٣٧.
٦٦. محمود قمبر: مهنة التعليم في التراث العربي، مرجع سابق، ص ١٩.
67. G. Le Compte, le Livre de conduite des maitres d'ecole - extrat de la revue de etudes Islamiques, Annees 1935 et 1945, PP. 80.
٦٨. مجلة الهلال: عدد أكتوبر عام ١٩٤٨، مقالة عن «نوادر المعلمين»، ص ٢٩.
٦٩. الجاحظ: البيان والتبيين، ج ١، ص ١٤٠.
٧٠. ياقوت: معجم الأباء.
٧١. الجاحظ: البيان والتبيين.
٧٢. ابن حوقل: كتاب صورة الأرض، مرجع سابق، ص ١٢٦ ـ ١٣٠.
٧٣. ابن عبدون: رسالة ابن عبدون نشرت في Journal Asiatique عام ١٩٣٤. عدد ٢٢٤، ص ٢١٥ ـ ٢١٩.
٧٤. آدم ميتز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة محمد عبدالهادي أبو ريدة، ج ١، ص ٣٠٧.
٧٥. ليفي بروفنسال: ثلاث رسائل أندلسية، مرجع سابق، ص ٢٥ ـ ٢٦.
٧٦. ابن خلدون: المقدمة، مرجع سابق، ص ٤٣٠ ـ ٤٣١.
٧٧. مجلة الطليعة: وثائق التربية، العدد ١١ نوفمبر ١٩٦٥، ص ١٥٤.
٧٨. محمود قمبر: مهنة التعليم في التراث العربي، مرجع سابق، ص ٢٤.